تفكيك الخطاب المرجعيّ في استذكار فتوى الجهاد

د٠ عدنان صبيح
باحث متخصص في انثروبولوجيا الخطاب

الملخص:
حوَّلتِ المرجعيّة الدينية خطابها المباشر عبر خطبة الجمعة عن طريق وكلائها في كربلاء (الصحن الحسينيّ)، ومقتصرة على شخصين فقط هما الشيخ عبد المهدي الكربلائيّ أمين عامّ العتبة الحسينيّة، والسَّيِّد أحمد الصَّافي أمين عامّ العتبة العباسيّة، وعن طريقهما تُنْقَلُ رسائل المرجعيّة المكتوبة من غير تدخل للخطيب، (إن وُجِدَتْ)؛ لأنَّ تلك الرسائل ليست موجودة بصورة دائمة وإنَّما نتيجة لحاجتها، يقرأها الخطيب في الخطبة الثانية، ولا يغير فيها شيئاً، ويرجع ذلك إلى أنَّ المرجعيّة غيّرت سياق الفتاوى والرؤى المتعلقة بالجانب السياسيّ، بعد امتناعها عن مقابلة جميع السياسيّين (محملة إياهم مسؤوليّة التردي في الوضع العراقيّ)، فكان السياق الجديد لخطاب المرجعيّة، على شكل خطاب يستعمل فيه طريقي المشافهة عن طريق الخطيب والمكتوب من خلال النّصّ المرسل منها، يقرأها الخطيب، وتعرض في موقع خاص لمكتب المرجعيّة، ويعود ذلك لأسباب عديدة؛ منها إنَّ المرجعيّة اختارت طقساً خطابيّاً كاملاً تعرضُ فيه رؤاها وفتاواها، وكان ذلك الطقس يشمل السياقات الخطابيّة التي تساعد على إيصال الرسائل للجمهور، سياقات كاملة منها (المكان) وهو الحرم الحسينيّ وعلاقته الروحيّة مع الشيعة، ثانيها لتصل الرؤى إلى الجميع؛ لأنَّ البيانات ليس بالضرورة أن تصل للجميع على حين من خلال الخطبة فإنَّها تصل إلى الأمِّي والقارئ وهذه أحدى الآراء التي تعرض في الأنثروبولوجيا على أنَّ الخطاب الشفاهيّ هو أسرع للوصول إلى الجمهور من المكتوب.
تمارس المرجعيّة الدينيّة وسائل الخطاب المختلفة مع الجمهور، إلَّا أنَّها في الوقت ذاته تمارس قياس درجة العلاقة مع الجمهور، متخذة من التدريج في الخطاب أوّل تلك المقاييس، فلا تعطي المطلوب إلَّا بعد قياس تلك العلاقة عبر التدرج والمواكبة فهي تواكبهم، وما يشعرون ثم تعطي الجديد، ذلك أنّها تقدّم الجديد بصورة مستمرة حتى وأن كان الحدث متشابها، فالجديد يعني بأنَّ المرجعيّة تريد تواصلا دائماً مع الجمهور

الشيعيّ، فمثلاً عند سؤالها عن الانتخابات، وبالرغم من أنَّ الآلية الانتخابيّة واحدة كانت إجابات المرجعيّة تعطي أشياء جديدة في كلِّ سؤالٍ، مع مراعاة عدم مخالفتها للأوّل، ذلك أن الجمهور يمثّل الهدف الأوّل في الخطاب الشيعيّ، ابتدأ من خطب الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، ومنه قول الإمام الحسين (عليه السلام): (إنَّ هائنا وسعيداَ بعثا الي برسائلكم أن ليس عليكم إمام) هذا يعني بأنّ الإمام يمارس دور قياس الطاعة لدى الجمهور، وعلاقة الجمهور بالإمام هي العلاقة بين المؤمنين وبين ممثل العقيدة، وهذا ما يلاحظ في خطاب المرجعيّة الدينية فهي تواكب الجمهور وتتحدث بخطابة أحيانا وتوجيه أحيانا أخرى، وبذلك فإن هناك خطاباً مختلفاً للمطيعين لأؤامرها إذ قدّمت لهم أعلى أوصاف المديح؛ وهي بذلك تعمل على تعزيز تلك العلاقة، فمن غير ذلك لا يمكن أن يكتب لأيِّ فتوى بالنجاح، فقد حمل الملبون للفتوى بالنسبة للمرجعية الدينية أعلى الاوصاف من المدح مثلما مدح الإمام الحسن (عليه السلام) أصحابه عندما قال (أصحابي خير الأصحاب).

المرجعيّة الدينيّة:

قبل أن نبدأ بتحليل خطاب المرجعيّة، سنعرض شيئاً ممّا تعنيه، المرجعيّة الدينية عند الشيعة، وماهي العلاقات الرابطة بينها وبين الجمهور، وكيف لتلك العلاقة أن تفعّل في أوقات معينة، وما الذي يفعّلها.

المرجعيّة الدينية الشيعيّة هي سلطة دينيّة واجتماعيّة واحياناً سياسيّة، يصل إليها رجل الدين بعد اجتيازه مراحل متعددة، حتى يبلغ مرحلة (الاجتهاد) ولم تعدّ تلك كافية ليكون (مرجعاً) فهو يحتاج إلى شهادة الخبراء، وهم رجال دين آخرين من المدرسة الدينيّة، وصلوا إلى مراحل متقدّمة (الاجتهاد) أو قبله بقليل، يكون التنافس على ذلك بمجرد طرح (الرسالة العمليّة) يعني بأنّه أعلن نفسه (مرجعاً)، وهناك عدّة مراجع في الوقت نفسه يطرحون رسائلهم، إلَّا أنّهم يشيرون إلى أحدهم بأنّه الذي يستحق الاتّباع، ويسمى الذين يتبعون (هذا المرجع) بالمقلدين، ولذلك تسمى العلاقة بين المرجع والجمهور (التقليد)، وتلك العلاقة هي قوة أي مرجع في كل زمان، يسعى المرجع

بمجموعة من الاجراءات أن يتابع الحياة العامّة، والارشاد نحو ترك المَنهيات، وفي الوقت نفسه يعمل على قياس الطاعة بينه وبين الجمهور.

(والتقليد) لغة من (القلادة) أيّ وضعها في الرقبة، إذ أنّ (المقلّد) بجعل القلادة في عنق غيره [١]، والعاميّ عندما يقلد المجتهد الجامع للشرائط فهو يجعله مسؤولاً عن صحة عمله، أمام الله (عزَّ وجلَّ)، ويجعل هذا العمل في عنق المجتهد(*).

وقد يتداول الكثير من رجال الدين، وبعض الجمهور مستندين إلى عدد من الروايات والأحاديث بأن (التقليد واجب).

بالرجوع إلى الأحاديث عن الائمة (عليهم السلام) بأنّهم يرجعون شيعتهم إلى العلماء من أصحابهم، ورواية العلماء (وجوب رجوع العاميّ إلى المفتي، ومن خالف ذلك كان خارقاً للأجماع)، وترد عبارة عند الجمهور بصورة كبيرة (من مات ولم يقلد مات ميتة جاهليّة) وهي أكثر العبارات يقولها الجمهور بهذا الشأن.

والمقصود بوجوب التقليد في تلك العبارات هو اقتصاره على زمن الغيبة، كون تلك المرحلة لا يوجد فيها معصوم؛ ولذلك يحتاج الناس إلى من يفتي لهم في مستجدات حياتهم، واستناداً إلى حديث للإمام المهدي يقول فيه: (وأمّا الحوادثُ الواقعةُ فارجعُوا فيهَا إلى رواةِ حديثِنَا، فإنّهُم حُجّتِي عليكُم وأنا حُجّةُ اللهِ) [٢]، هي الرواية التي تكاد تكون الأكثر أهميّة كرابط الجمهور فعلياً بمراجع الدين، وعلى هذه الرواية، تأسست المرجعيّة الدينية منذ بداية الغيبة الكبرى، فقد برز علماء كبار وأسماء مقدسة عند الشيعة، ويعدّون كتبهم مراجع يعودون لها (كالشيخ الصدوق، والشيخ الطوسي والشيخ المفيد، وغيرهم من العلماء). وهذا توضيح سريع لطبيعة العلاقة بين الجمهور الشيعيّ والمرجعيّات الدينيّة.

وأما ما يتعلق بالمرجعيّة الدينيّة الآن صاحبة الفتوى الخالدة، فإنه المرجع الشيعيّ السيّد علي الحسينيّ السيستانيّ المرجع الأعلى في الوقت الحالي ويبلغ من العمر تسعين عاماً، ومقر المرجعيّة في العراق هو محافظة النجف الاشرف، ويعيش في النجف مراجع آخرين غير السيد السيستاني قد اصدروا الرسائل العملية (يعني بأنهم متصدين لمنصب المرجعيّة

في النجف) وهم الشيخ إسحاق الفياض، والشيخ بشير النجفيّ، والشيخ محمد اليعقوبيّ، والسيد محمد سعيد الحكيم الذي وافاه الأجل عامّ (٢٠٢١م) إلَّا أنّهم في الغالب لا يصرحون كثيراً في الشأن السياسيّ، ولا يعارضون ما يقوله السيد السيستانيّ بل أن بعضهم يرشد الجمهور عند سؤالهم إلى مرجعيّة السيد السيستاني. وعلى ذلك أصبح السيستانيّ صاحب الرأي الأهمّ في النجف، ويتبعه الجمهور (المقلدون).

يكرر المقلدون عدداً من الأسئلة فيما تخصّ الجوانب الاجتماعيّة والسياسيّة تعكس تلك الأسئلة العلاقة القائمة على السؤال الدائم من المقلدين، ولا يمكن أن يمر حدث سياسيّ أو اجتماعيّ إلَّا وتمّ سؤال المرجعيّة عنه، ولذلك تجيب المرجعيّة عن عشرات الأسئلة بصورة مستمرة، ومستفيضة أو تمريرية، والملاحظ أن المرجعيّة تُسأل بطريقة التكرار، السؤال نفسه بأزمنة مختلفة، يجعل الباحثين مركزين عن معنى تكراره من قبل المقلدين، ولا يتوانى المقلدون في اعادته، والمفارق بالموضوع أنّ المرجعيّة تجيب في كلّ مرة، ولا تعترض على إعادة السؤال، أو تكتفي بالرد بموقفها الثابت من عملية معينة. فمثلاً أنّ المرجعيّة أعطت رأيها في الانتخابات منذ ٢٠٠٥، مع ذلك فإن المقلدين لا يتوانون في سؤالها بصورة مستمرة كلّ مرحلة انتخابيّة عن رأيها في الانتخابات، ممّا يدخلنا في عملية إعادة ترتيب الأوراق، لقراءة تلك العلاقة عبر السياق الخطابيّ الذي يحكم النّصّ المرجعيّ المتمثّل في الإجابات على اسئلة المقلدين، والخطب السياسيّة والاجتماعيّة في هذا الشأن.

ولا بدَّ لنا كباحثين أن نطرح سؤالاً عن ذلك الترابط في الاسئلة، مبني على القراءة السابقة، وهو: هل كانت تلك الأسئلة من أجل المعرفة، أم أنها كانت مجرد (تكرار)؟

ولا يعدّ ذلك السؤال انتقاصاً من أسئلة الجمهور بقدر الحاجة إلى الوصول إلى معنى ذلك التكرار، المفسر للعلاقة بين الجمهور والمرجعيّة. سنحاول الوقوف على استذكار المرجعيّة لفتوى الجهاد الكفائيّ في ذكراها، لنتابع العلاقة التي ترسمها المرجعيّة مع الملبين لفتواها، وعن طريق عرض الخطاب المقروء من أحد وكلائها، والذي من خلاله

نحاول الوقوف على العلاقة المستعادة بصورة متكررة بين الجمهور والمرجعيّة عبر منهج التفكيك الذي يناظر بين المفاهيم عن طريق الاستدعاء الثقافيّ.

المنهج التفكيكيّ:

تحددت الدراسة بجانبها السياقيّ القائم على اعتبار الظروف الخارجيّة ذات قيمة مساويّة للظروف النّصّيّة، وليس بعدها مكملة للنصّ أو زائده عنه، ولا يعني ذلك الدوران حول النّصّ، أو اهمال جانبه الذاتي، بل هو تفكيك للنصّ، كون دراسات النّصّ الحديثة وجدت أن من أسلم الطرائق في تحليل النّصّ هي تفكيكه.

تميّز القرن العشرين على أنّه قرن التحليل والتفكير، وإذا كانت اللُّغة شاغلاً اساساً من شواغل الفلسفة؛ كونها تحدد الفروض الدقيقة والبراهين، والنتائج، وجزء من مرتكزات الفكر وأنموذج للقياس والتطبيق، من هنا كانت البنيويّة والتفكيكيّة من أهمّ المنهجيّات الأساسيّة التي نهضت على الجهود اللغويّة الحديثة في ذلك القرن [٣].

إنّ دريدا هو الشخصيّة الأولى في فهم معنى التفكيك*، مبيناً أن التفكيك استراتيجيّة، وتحليل، لا يقتصر ارتباطها بالنّصّوص الأدبيّة، بل تشمل الجانب الفلسفيّ والنظريّة الأدبيّة بصورة أعمّ [٤].

والتفكيكية تفجر النّصّ، تحرضه ضد نفسه، بل هو أن نشكّ بالمقابلات ونستجوب التسلسلات، ونسجّل التناقضات والتعارضات [٥]، تعمل التفكيكيّة على فكرة قائمة على الحضور والغياب، فكلّ فكرة حضور هناك في داخلها فكرة غياب، وأن تلك الفكرة (الغياب)، أما بالتحول الزمنيّ، أو بحاجتها إلى التأويل، أو النسخ أو التفسير، فهذا يعني بحد ذاته وجود غياب في فكرة الحضور.

وإنّ الحضور لدى دريدا هو حضور الشيء بكونه مادة، والحضور لم يعدّ حاضراً، إلّا وهو مقترن بالغياب داخل النسق، فلا يوجد شيء حاضر فقط، أو غائب فقط، لقد طور دريدا مفهوم ثنائيّة (الحضور- الغياب)، إلى تنويعات مختلفة، وتعتمد العلامة المستعملة على حضورها في لحظة استعمالها، لكنها تتحدد بالمعاني الغائبة لدلالتها حين استعملت في زمن آخر [٦].

ويعمد المنهج إلى تفكيك النّصّ وتجاوز حدود البناء اللُّغويّ_ النحويّ، إلى الكشف عن التفاعلات الاجتماعيّة؛ أي عن بيئة النّصّ، وإلى الكشف عمّا وراء النّصّ، أيّ ما يخفيه أو يضمره النّصّ، ولكنه جزء منه وفي صلبه، وبعد فإنّه يحاول ابرازه واشهاره، ليكتمل المعنى في زمان ومكان محددين (٧).

وتبعًا لما تقدّم فإنَّ الدراسة النّصّيّة القائمة على تحليل الخطاب المرجعيّ ستعتمد على المنهج التفكيكيّ لكونه يعتمد على الظروف الاجتماعيّة واللغوية المصاحبة للنصّ، وسنتجه في التحليل إلى خطاب المرجعيّة في الذكرة الخامسة لفتوى الجهاد الكفائي، وبيان العلاقة التي تؤسسها المرجعيّة مع المستجيبين لتلك الفتوى.

المرجعيّة والفتوى:

تعتمد دراسات الخطاب على مشاهد نصيّة تساعد تلك المشاهد على رسم العلاقة بين النّصّوص ومفسريها، ليتم الخروج بنصّ ثانٍ مؤول يعتمد على السياقات التي رافقت تلك النّصّوص، وبذلك سنعمد في البدئ قبل تفكيك النّصّ تحويله إلى مشهد نصي يرافق ما قيل ظروف الكلام ومحايثاتها؛ ليتمكن تحليل الخطاب على الوقوف على مشهد خطابيّ كامل لا يشتمل على نصّ الخطبة فقط.

مشهد خطبة استذكار الفتوى ١٥-شعبان -٢٠١٩:

كما تعوّد من ينتظر الخطبة أو يحضرها، بأنّ يكون جزؤها الثاني عادة مكتوباً بطريقة نصيّة لا تقبل التداوليّة والإضافة تقرأ عن طريق ممثلها في كربلاء يوم الجمعة في خطبتها، ليست دائمة وإنَّما ترتبط برسالة من المرجعيّة قد اعتمدت عليها، أو في الأحداث المهمّة، وعادة ما تنتظر المرجعيّة يوم الجمعة لتطلق رسالتها وتوجيهها، بشكل لا يقبل التأويل. تبتدئ الخطبة بـ (اقرأ عليكم نصّ ما ورد من مكتب سماحة السَّيِّد (دام ظلّه) في النجف الأشرف بمناسبة ذكرى فتوى الدفاع الكفائي) (٨)، لتكتب على نفسها عنواناً أساساً للخطبة يسيطر على العنوانات الأخرى.

يتلو عليهم تذكارها بحدث مهمّ قبل خمسة اعوام بمثل هذا اليوم انطلقت الفتوى (قبل خمسة اعوام ـ انطلق من هذا المكان المقدس نداء المرجعيّة الدينيّة العليّا وفتواها الشهيرة

بوجوب الدفاع الكفائيّ)، وبدأت تذكر بالفتوى ودعوتها العراقيّين القادرين على حمل السلاح لمواجهة الإرهابيِّين الذين سيطروا على مساحات واسعة، واستجابة العراقيين لذلك (فهبّ رجال العراق الأبطال شيباً وشباباً ومن مختلف الشرائح الاجتماعيّة واندفعوا إلى ساحات القتال بحماس منقطع النظير وهمّة لا توصف وخاضوا لأزيد من ثلاثة اعوام عشرات المعارك الضارية بكفاءة عالية، تجلّت فيها البطولة بأروع صورها وأسمى معانيها)، فما كان الوصف ليكتمل حتى تذكر عشرات الآلاف من الشهداء، والجرحى والمصابين مبينة أنَّ ذلك من أجل إنقاذ الوطن ومقدساتهم (حتى منَّ الله عليهم بالنّصّر المؤزر وتمكنوا من دحر الإرهابيِّين وتخليص الأراضي المغتصبة من رجس المعتدين والقضاء على دولتهم المزعومة).

معطية الريادة لامتناعهم عن الخصام، على المستوى الشعبيّ والسياسيّ وتعاون الدول الصديقة والشقيقة، بل ترى بأنَّهم تعالوا عن المصالح الضَّيقة أمام مصلحة الوطن، فمقتت الصراع على المناصب والمحاصصة، ولم تنسَ الفساد المستشري الذي لم يقابل بالمحاسبة، بل لاتزال البيروقراطية وقلة فرص العمل موجودة من غير معالجة.

تتحدث عن أمورٍ تَعدّها منغصات، وتحذّر من عودة (داعش) بسببها، منها (القوانين التي منحت امتيازات للبعض، والصراع على المغانم، ووجود مشكلات أمنيّة وعشائريّة وطائفيّة، التباطؤ في إصلاح الوضع في المناطق المتضررة من الحرب، كلّ ذلك يصنع الفوضى ويعطي فرصة لمفتعليها، ويجد حواضن من متضرريها).

تتوجه للحلّ فتعطي نماذج، فتوفير الأمن يشتمل على خواص وسلوكيّات، يعدّها مهنيّة ترعى الحُرم، وامتناع التجاوزات، ومنح المواطنين فرص عيش وكرامة وحقوق قانونيّة تعدّ من الضرورات، وخلافه سيعود البلد إلى الآلام والمعضلات.

وتختتم خطابها بتحيَّة أجلالٍ وإكبارٍ للشهداء وعوائلهم، والمقاتلين الجرحى من جميع صنوف القوات الأمنيَّة، وتسميهم (الأعزَّاء، والأبطال المرابطين).

تسأل الله أن يحفظهم ويسدد خطأهم ويأخذ بيد الجميع إلى ما فيه خير البلاد والعباد.

تفكيك مشهد استذكار الفتوى (الدِّفاع المقدَّس):

حوَّلت المرجعيّة الدينيّة خطابها المباشر عبر خطبة الجمعة عن طريق وكلائها في كربلاء (الصحن الحسينيّ)، ومقتصرة على شخصين فقط هما الشيخ عبد المهدي الكربلائيّ أمين عام العتبة الحسينيّة، والسَّيِّد أحمد الصَّافي أمين عام العتبة العباسيّة، وعن طريقهما تُنْقَلُ رسائل المرجعيّة المكتوبة من دون تدخل للخطيب، (إن وُجِدَتْ)؛ لأنَّ تلك الرسائل ليست موجودة بصورة دائمة وإنَّما نتيجة لحاجتها، يقرأها الخطيب في الخطبة الثانية، ولا يغير فيها شيئاً، ويرجع ذلك إلى أنَّ المرجعيّة غيّرت سياق الفتاوى والرؤى المتعلقة بالجانب السياسيّ، بعد امتناعها عن مقابلة جميع السياسيّين (محملة إياهم مسؤوليّة التردي في الوضع العراقيّ)، فكان السياق الجديد لخطاب المرجعيّة، على شكل خطاب يستعمل فيه طريقي المشافهة عن طريق الخطيب والمكتوب عن طريق النّصّ المرسل منها، يقرأها الخطيب، وتعرض في موقع خاص لمكتب المرجعيّة، ويعود ذلك لأسباب عديدة، منها إنَّ المرجعيّة اختارت طقساً خطابيّاً كاملاً تعرضُ فيه رؤاها وفتاواها، وكان ذلك الطقس يشمل السياقات الخطابيّة التي تساعد على إيصال الرسائل للجمهور، سياقات كاملة منها (المكان) وهو الحرم الحسينيّ وعلاقته الروحيّة مع الشيعة، ثانيها لتصل الرؤى إلى الجميع؛ لأنَّ البيانات ليس بالضرورة أن تصل للجميع، على حين عن طريق الخطبة فإنَّها تصل إلى الأمِّي والقارئ وهذا أحد الآراء التي تعرض في الأنثروبولوجيا على أنَّ الخطاب الشفاهي هو أسرع للوصول إلى الجمهور من المكتوب.

وهناك نقطة مهمّة في اختيَّار وقتٍ محدَّدٍ هو أنَّ المرجعيّة تريد أن يكونَ الجمهور ينتظرها بصورة دائمة، محددة له توقيت رسائلها ليكون الاستعداد على أكمله في زمن محدود وهي تضمن بذلك وصول رسائلها بطريقة أسرع، وسياق خطابيّ كامل لا يقبل التَّأويل، فضلاً عن ارتباط الجمهور بها وهو من ينتظرها، (ليس لدي علم إن كانت المرجعيّة تقصد فعلاً ذلك) لكنَّه بالواقع يعطيها قوة ومكانة في أنَّ الجمهور ينتظرها، وقد لا تأتي رسائلها؛ لينتظر الجمهور أسبوعاً آخرَ.

يذكر الخطيب برسالة المرجعيّة بأنّها مخصّصةٌ لذكرى (فتوى الجهاد الكفائيّ) وهي واحدة من الفتاوى المهمّة في تاريخ العراق المعاصر، إذ دعتِ المرجعيّة من المكان نفسه، في عام ٢٠١٤ عبر خطبة الجمعة ألقاها الخطيب نفسه فتوى تدعو العراقيين إلى الدفاع عن مدنهم ومواجهة (داعش) ونالت حينها قبولاً شعبيّاً شيعيّاً واسعاً، وتحررت بفضلها مناطق كثيرة كانت تحتلها جماعة تسمي نفسها (الدولة الإسلاميَّة في العراق والشام)، وأخذ العراقيُّون يستذكرون الفتوى بصورة مستمرة وفضلها في تحرير الأراضي.

وبذلك فإنَّ المرجعيّة تريد من إعادة الذكرى وتخصيص خطبة كاملة لها في ذكراها الخامسة جواً اجتماعيّاً كاملاً؛ لتكون جزءاً من القصص المهمّة في التاريخ على المستوى الاجتماعيّ والسياسيّ، قصص تحمل في طياتها موقفا للمرجعيّة ومكانتها وأثرها في حفظ البلاد من الجهات المخربة، والقصص البطوليّة للأفراد المشاركين في تلك الفتوى.

وتؤكد بدآية الخطبة على أنَّ المرجعيّة قد دمجت بين الفتوى والمكان الذي قيلت فيه (انطلق في هذا المكان المقدس نداء المرجعيّة العليا وفتواها الشهيرة بوجوب الدفاع الكفائيّ) مؤكدة بذلك ما تمت الإشارة إليه بأنَّ (المكان) وأثره في تعزيز الفتوى وزيادة قوتها، لتكمل قولها (فهبَّ رجالُ العراق الأبطال شيباً وشباباً)، وهي بذلك تجعل الربط المباشر بين الفتوى وخروج الرجال للقتال، وما ذلك الربط إلَّا انعكاساً للعلاقة بين المرجعيّة والجمهور، إذ تسعى المرجعيّة إلى إبرازها، وما أشارتها (هب رجال العراق الأبطال شيباً وشباباً ومن مختلف شرائح المجتمع واندفعوا إلى ساحات القتال بحماس منقطع النظير، وهمّة لا توصف وخاضوا لأكثر من ثلاثة اعوام عشرات المعارك بكفاءة عالية، تجلت فيها البطولة بأروع صورها وأسمى معانيها)، وما ذلك النّصّ للذين ينظرون إليه كنصّ، قد صيغ بأكثر العبارات حبكة وتأثيراً، بل هي تطلق فيه كثيراً من الأوصاف، في كلّ عبارة رافقها وصف، كطريقة المادح الذي يريد أن يوصل إلى مرحلة لا تضاهيها الأخريات، فحينما قال (رجال العراق) وصفهم (بالأبطال)، وفي ساحات القتال أشار على أنَّ حالتهم (بحماس وهمّة وكفاءة عالية)، فتلك المعاني جميعها التي أوردها النّصّ هي معانٍ تفاعلية، تعكس العلاقات التي تصنعها المرجعيّة مع المنفذين

لأوامر الفتوى، إلَّا أنَّ الباحث الأنثروبولوجيّ عليه أن يسأل عن جدية الأوصاف التي أطلقت؛ لأنَّها وصلت إلى حدِّ النهاية من المديح، فالرجل (البطل) الذي يخوض المعارك (بحماس وهمّة) ومعارك ضاريّة يدخلها (بكفاءة عاليّة)، فلا يمكن لأيّ رجل في العالم أن يتصور أعلى من هذه الصفات، وهنا يأتي السؤال أتلك الأوصاف في خطاب المرجعيّة من باب (المبالغة) أم هي (وصف) حقيقي؟ وستكون الحاشية الثقافية هي السبيل لملء الفراغ الذي يوجده ذلك التناظر.

-(الوصف-المبالغة) معياراً تفكيكياً:

في البدء لابدَّ من القول بإنَّ الصفات التي وردت في خطاب المرجعيّة للمقاتلين، هي لا تشمل أشخاصاً محددين، بل هي تشمل إطاراً ثقافياً عاماً، ويوضح عن طريق التأويلات معاني متعددة، فلا يمكن لأيّ خطاب أن يحمل معنًى واحداً، في ذلك الوصف تعبر عن العنصر الثقافي المتمثّل بالجهاد عن الشيعة، ويخضع ذلك العنصر بصورة مستمرة للقراءة والتحليل، نتيجة الظروف المرافقة والسياق العامّ، وإذا ما قمنا باستدعاء مقولة مشابهة للصفات التي أطلقتها المرجعيّة (للمقاتلين) والذين تربط بينهم وبين الفتوى، ولأنَّها انتظرت سياق الذكرى (للفتوى) وأطلقت تلك الأوصاف، استدعاء لقول الإمام الحسين (عليه السلام) عن أصحابه في معركة الطف (ما رأيت أصحاباً خيراً من أصحابي ولا أهل بيت خيراً من أهل بيتي)، أي: إنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) اطلق على أصحابه صفات مديح (لا حد لها) بل إنَّ الجمهور الشيعيّ يستذكر تلك المقولة على أنَّ أصحاب الحسين(ع) هم أفضل من أصحاب الرسول (ص)، وإنَّ ذلك الرأي عند الجمهور الشيعيّ متأتٍ من صفات المديح الكبرى ذات المعاني الكبيرة التي اطلقها الإمام الحسين(عليه السلام)، وأصحاب الفتوى (كلاهما أطلق عليهم صفات المديح بصورة كبيرة).

والرابط بين الاثنين مع وجود فارق زمني بأكثر من ١٤٠٠ عام، هو (الاستجابة) فإنَّ أصحاب الحسين (عليه السلام) استجابوا لندائه، ووقفوا معه في الحرب، فأعطاهم امتيازاً عن جميع الناس، والمرجعيّة تعطي للمستجيبين لنداء الفتوى امتيازاً من الصعب

الوصول إليه من غير تلك (الاستجابة)، وكلاهما امتياز اجتماعيّ يعطي صاحبه مكانة، ما كان ليحصل عليها لولا (الاستجابة) للنداء، وذلك الربط التحليليّ لم يكن بشكل منفصل عن الثقافة، فلا يمكن لأيّ تحليل انثروبولوجيّ أن يأتي بحاشية ثقافيّة في غير محلها، فالجمهور أخذ يربط بين المقاتلين ويعطي لبعضهم أوصافاً تشبه أوصاف أو أسماء أصحاب الحسين (عليه السلام) فقد وسموا أحدهم (جون) وآخر (حبيب) وغيرهم، وهي أسماء معروفة في العقيدة الشيعيّة لأصحاب الحسين (عليه السلام) الذين قال عنهم: (لم أجد أصحاباً خيراً من أصحابي)، بل إنَّ تلك الأوصاف أطلقت قبل إنَّ تطلق المرجعيّة أوصاف المديح عليهم، ممَّا يعني بأنَّ الجمهور الشيعيّ تعلّم أن يُعْطِيَ امتيازاً اجتماعيّاً للمستجيبين لفتوى المرجعيّة، وإنَّما هو جزء من التكريم الاجتماعيّ، يعمل على ديمومة العلاقة بين المرجعيّة والجمهور، قائمة تلك العلاقة على عنصر أساس وهو (الاستجابة)، وبذلك فإنَّ (الاستجابة) هي كفيلة بملء الفراغ الذي أوجده التفكيك بين (المبالغة والوصف)، وممَّا يؤكد ذلك الارتباط أنَّ ما ابتدأت به الخطبة من ذكر صفات المديح، تختتم المرجعيّة بصفات أيضاً وتقول (الأعزَّاء، الأبطال، المرابطين). وتأسيًا على كلّ ما تقدّم يبدو أنَّ الخطاب الشيعي يعتمد على الجمهور(الاتباع)، وتُقَاسُ درجة طاعتهم بين وقتٍ وآخرَ، وأنّ الوعي الشيعيّ ينطلق من درجة الطاعة، والذين يصلون إلى درجة الطاعة الكبرى وهي الإلتزام بالتوجيّهات ومساندة (ممثل العقيدة) يصبح ذا مكانة عالية، ومميّزاً عن باقي الاتباع، وتنهال عليه عددٌ من المدائح التي لا يحصل عليها من غير (الطاعة العالية)، وكانت أمثلة أصحاب الحسين (عليه السلام) حاضرة ضمن الخطاب التاريخيّ، وأصحاب فتوى الجهاد الكفائيّ التي اطلقها السَّيِّد السيستانيّ في القرن الحادي والعشرين، أبرز ما يبيّن ذلك المنطلق.

الهوامش :

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب (١١/ ٢٧٥) مادة "قلد"

(٢) المحقق النراقي، عوائد الأيام، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٤٤٢.

٣ - مروان علي حسين، التفكيكية عند جاك دريدا، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، العدد٤١، المجلد٢، ١٩٩٧، ص٤٥٣.

* - علماء التفكيكية: أبرز علماء التفكيكية في فرنسا رولان بارت، وجاك دريدا، اما في امريكا فكان الابرز بعد دريدا ايضا هو بول ديلمان، وهيلس ميلر. للمزيد: بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة: مناهج وتيارات، دار فضاءات للنشر والتوزيع، الاردن، ٢٠١٦، ص١٤٩-١٥٠.

٤ - نيكولاس رويل، ما التفكيكية، من كتاب ألوان التفكيكية: دليل المستخدم، اعداد نيكولاس رويل، ترجمة عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤، ص١٢.

٥ - فرينيالد هالين، من التأويلية الى التفكيكية، من كتاب بحوث في القراءة والتلقي، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الانماء الحضاري، سوريا، ١٩٩٨، ص٢٣.

٦ - سمر الديوب، مصطلح الثنائيات الضدية، مجلة عالم الفكر، العدد١، المجلد٤١، الكويت، سنة٢٠١٢، ص١١٦.

٧ - مايكل كاريذرس، لماذا ينفرد الانسان بالثقافة: الثقافات البشرية نشأتها وتنوعها، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم معرفة، الكويت، العدد٢٢٩، ١٩٩٨، ص١٢.

(٨) العبارات الواردة في هذا النص بين قوسين () هي نص الخطبة من دون تدخل من الباحث.

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

١. ابن منظور، لسان العرب، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) ـ دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٢. بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة: مناهج وتيارات، دار فضاءات للنشر والتوزيع، الاردن، ٢٠١٦.

٣. سمر الديوب، مصطلح الثنائيات الضدية، مجلة عالم الفكر، العدد١، المجلد٤١، الكويت، سنة٢٠١٢.

٤. فرينيالد هالين، من التأويلية إلى التفكيكية، من كتاب بحوث في القراءة والتلقي، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الانماء الحضاري، سوريا، ١٩٩٨.
٥. مايكل كاريذرس، لماذا ينفرد الانسان بالثقافة: الثقافات البشرية نشأتها وتنوعها، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم معرفة، الكويت، العدد٢٢٩، ١٩٩٨.
٦. المحقق النراقي، عوائد الأيام، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٠.
٧. مروان علي حسين، التفكيكية عند جاك دريدا، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، العدد٤١، المجلد٢، ١٩٩٧.
٨. نيكولاس رويل، ما التفكيكية، من كتاب ألوان التفكيكية: دليل المستخدم، اعداد نيكولاس رويل، ترجمة عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤.